

الفصل الأول

نفسية الشاعر كما تتمثل في شعره

ليس من العسير أن نهتدى إلى نفسية الشاعر من شعره ، فقد كان التيجاني في معظم شعره صادقا يعبر عن واقع حالته النفسية أصدق تعبير ، نعترف ذلك من حرارة الشعور التي تشع من عبارته ، ومن دوران الفكرة المعبر عنها في أكثر من موضع من شعره أحيانا .

وإبل أول ما يلفت النظر أن التيجاني كان مولما بالقراءة ، والاطلاع ، في الفلسفة ، واللغة ، والأدب ، والدين . وأغلب الظن أنه كان يعمق النظر فيما يقرأ ، ويعرف كيف يتمثله ويستفيد منه ، ويديره في ذهنه يوما بعد يوم ، وساعة بعد ساعة . ومن ثم اتسع أفق تفكيره ، وتفتح ذهنه على حقائق تتعلق بالحياة والوجود .

أضف إلى ذلك إحساس التيجاني المرفف ، وشعوره الدقيق ؛ وبعض الناس يعرفون منذ نشأتهم الأولى برهافة الحس وسرعة الانفعال وحدة الشعور ؛ لا تمر الكلمة العابرة أو الإشارة الخاطفة على مشاعرهم اللينة المرففة . حتى تحدث فيها أثرا ، فترضيه أو تستخطهم ، وتفرحهم أو تحزنهم ، وتشرح صدورهم أو تبعث فيهم الانقباض والكآبة . وهؤلاء لا يستطيعون أن يعيشوا على هامش الحياة ، أو أن يتخلوا في سهولة ويسر عن مشاركة الناس آلامهم وآمالهم ، مأسيتهم ومباهجتهم ؛ يعنون بكل ما يقال ؛ وكل ما يفعل ؛ ويشعرون مع الشعارين ، ويذهبون

بمشاركتهم العاطفية مع الناس كل مذهب ، فاذا الحياة عليهم عبء
ثقيل ، وشغل شاغل . لا يرتاح لهم بال إن وجدوا فقيرا يتأوه جوعا ،
أو مريضا يتلوى ألما ، أو مواطنا يتشكى ظلما ، أو جماعة تصطنع
الكذب والرياء .

لم يقف التيجاني من المجتمع الذي يعيش فيه موقف المتفرج الذي
لا يكثرث ، والمتطلع الذي أقام بينه وبين مسرح الحياة حاجزا منيعا ،
بل كان لا يستطيع أن يسد أذنيه ، وأن يغطي عينه دون ما يضطرب
تحت سمعه وبصره . كان إحساسه وانفعاله أشد إرهابا وتأثرا بما حوله
كما يكون عادة لسائر الناس .

هذا شاب ثقف نفسه ، ووسع مداركه ، وأوتي رهاقة الحس ،
فاستطاع أن يوغل إلى باطن الحياة ، ويفهم كثيرا من أسرارها . والحياة
لمن يتعمقها ، ويفهمها حق الفهم ، ليست إلا سلسلة من المتناقضات ،
والوانا من المفارقات . فهي للرجل المتطلع إلى مُثُل عليا ، شيء مقلق
للراحة ، لا يزيد التأمل فيها إلا سخطا عليها وتبرما بها .

وكما ازداد الشاعر فهما للحياة والأحياء ، ارتفع بعقله ، وسما
بفروحه على الناس كما يرتفع الطيار بطائرته فيرى من تحته عوالم صغيرة
متشابهة لا يكاد يبين من أمرها شيئا ، وهذا ما انتهى إليه التيجاني ؛
فخبر دخائل الناس وظواهرهم ، وتجلت له كل يوم صور من المتناقضات
كانت تزيد ضيقا على ضيق ، وتبرما بالحياة على تبرم . وما لبث أن
اتسعت الهوة بينه وبين الناس ، وجعل يسمو بنفسه عليهم ويشرف
منهم على مخلوقات صغيرة متشابهة لم يتح لها الزمان أن تتطور في مدارج
الرقى العقلي والنفسي . وربما كان الناس سادرين فيما هم فيه ، غافلين عن

هذه العين الناقدة التى تقف لهم بالمرصاد ، وتنتظر إليهم فى اعتداد
وكبرياء .

يتجلى هذا فى شعر شاعرنا ، حين يتحدث عن الناس أو يتحدث
عن نفسه . فهو يرى أنه أديب نابغ ، نسيج وحده ، له قلم سحرى ،
ونفس حرة طليقة ، وعقل كبير نفاذ . هو درة ثمينة ، لا ينبغي أن يقبر
عند الموت إلا فى صدقة لائقة به ، وأن يسكب الدم على قبر النبوغ هذا
الذى سيثوى فيه :

وصنع له الأصداق قبرا فما يستبطن الدرة غير الصدف
واسكب على قبر النبوغ الدما وانثر على قبر الشباب الطريف

وكم كان يضيق بهؤلاء الناس الذين لا يقدرونه حق قدره ، حتى
أضاعوا بينهم نبوغه ، وهدروا شعره ، ألا يعلمون أن شعره قيثارة
الجديد وسجل الحياة :

يا أديبا مضيعا من بنى الدنيا بحسب الأديب محض انتجاعه
أنت يا رائد القريض وما أنست بسقط الورى ولا من رعاه
أنت قيثارة الجديد ، بك اسـتـظـهـرَ مَنْ فى الوجود سرَّ متاعه
أدبٌ ملؤه الحياة وشعر مفعم بالسمو فى أوضاءه
ضاع ! ويح الذى يغار على الشعـر — ويح الأديب يوم ضياعه !

لعل مثله الأعلى ذلك الفيلسوف الذى يمشى عارى المناكب ، مرتديا
ثوبا خلقا ، مشرد النفس لا مال لديه ، ولا جاه ، يعيش فى الدنيا بجسمه ،

ويعيش في العالم العلوى بعقله وروحه ؛ له في سماء الفكر صولة وجولة .

عارى المناكب في أعطافه خلق من العطاف قصى إلا بقاياها
مشى على الجبل المرهوب جانبه يكاد يلمس مهوى الأرض مرقاه

هذا الجبل الهائل المخوف يكاد يتصدع فرقا من هذا الفيلسوف
الذى يمشى عليه ، فتلمس قمته الأرض خشوعا وهيبة ؛ وكيف لا ، وهذا
الجسم الناحل الشاحب إنما يحمل عالما روحيا ضخما لا قبل للجبل به ،
ورسالة من لدن قوة هائلة جبارة :

منبأ من سماء الفكر ممسكة على الرسالة يمتناه ويسراه
أوفى على الأرض مأخوذا وطواف بها مشرد النفس لآمال ولاجاه

أحب الشاعر هذه النزعة الصوفية واتخذها مثله الأعلى ، نزعة الزهد
في المطهر والتطلع إلى المعانى والأفكار السامية . وما زين هذه النزعة له ،
فما يبدو ، أنه كان ، فيما نفهم من شعره ، فقيرا . ولم يكن فقره أول
الأمر إلا صدمة من صدمات الحياة التى صادفته ؛ فإن شابا كالتيجانى ،
واسع الإدراك ، مرهف الحس ، دقيق الشعور ، لا بد أن يكون من
الطموح والرغبة بحيث أحس إحساسا قويا بأن فقره يقف حائلا دون
مآرب كثيرة كان يود لو تتحقق ، الأمر الذى جعله يحس إحساسا قويا
بضييق ذات يده وبقيمة المال فى يد غيره ، فثار حقدا على هؤلاء الذين
يكنزون الأموال والثروات ؛ وأصبح موقفه من الحياة موقف المتصوف
الذى أحب أن يقنع نفسه أولا ويقنع الناس بعد ، أن الثروة إنما هى
ثروة الآمال ، والحب ، والجمال لا ثروة المال ، والدور والضياع .

ما بنى ثراؤك من ذخرك ولا مال فاستبق دنياك حسبي كثر آمالى

المال شيء لا قيمة له ، وليس أمتع ولا أزخر من حياة كلها أحلام
معسولة ؛ وخيالات عذبة ، وأفكار سماوية ، والحب هو ينبوع الثرى
الثراء الذى لا ينضب معينه ، يلبي نداءك إن ناديت ولا يخلف لك وعدا
ما حيت ، ولا يماطل كما يماطل الناس .

ولى فى كنوز الحب سلوى ورغبة بحسبى لا يخلف لديه ولا مظل
وحسبى ما أثريت منها وإمانى ليصرف نفسى عن نضاركم شغل

فليس لدى الشاعر من الصبر والجلد ما يستطيع به أن يحتمل خلف
هذا ، ومطل ذاك ، لا يكاد تعترضه صدمة ، مهما صغرت ، حتى يتطوى
على نفسه ، وينكمش على أحلامه وخيالاته . ومثل هذه الحالة منشؤها
فيما يقال ضعف فى الإرادة لا يمكن صاحبها من مواجهة الصدمات
والصعاب ، ولا يؤتبه المقدرة على مواصلة البحث فى عالم اللحم والدم .
وهذا فيما نظن منشأ النزعات الصوفية فى الشرق قديمها وحديثها .
ويحسن أن نشير هنا إلى أن التصوف يكون فى الأدب كما يكون فى الدين
ومنشؤها واحد . والظاهر من تتبع تاريخ التصوف أنه يزدهر فى المناطق
الحارة بنوع خاص حيث رهافة الحس ، وحرارة الشعور ، وغير ذلك
بما يدفع إليه المناخ من قلة الصبر ، والميل إلى الدعة .

وإذا أردت أن تعرف نظرة التيجانى إلى (الإنسان) فاسمع هذه
الآيات ، من قصيدة عنوانها (طفل) :

تبارك الذى خلق من مضغة ومن علق
سبعانه مصورا من حماة الطين حرق

شق الجفون السود واستل من الليل الفلق
واستخرج الانسان من محض رياء وملق
بث القوى فيه دما احمر او عظماً يقق
من عدم لعدم ومن عناء لرهق
سبحانه كم ألهم العقل جنونا وحمق
يشك ما يحيا وإن أشقى على الموت فرق
رمى بهذا الطفل في الأرض ومن ثم رزق
رمى به في موكب الدنيا مثالا للقلق

هذا الإنسان المسكين قد خرج إلى الدنيا من عدم وسينتهي إليه ،
ليست حياته إلا سلسلة طويلة تبدأ بالعناء وتنتهي بالرهق .

من عدم لعدم ومن عناء لرهق

هذا البيت الذي يلخص تازيخ الإنسان كله بروح متشائمة ، فلا
يعترف الإنسان بهذا الوجود الذي يكون بين العدمين ، ولا يقف عند
راحة ما بذوقها المرم بين عناءين . بل لا أدل على تشاؤمه من هذا البيت .

واستخرج الإنسان من محض رياء وملق

تلك الفكرة التي يرددها في موضع آخر إذ يقول :

قلت وهل في الحياة مضطرب إلا لأهل الرياء والكذب

بل لقد رمى سبحانه هذا الطفل المسكين في زحمة الدنيا ، واضطراب
الحياة ، وصخب الوجود ، رمزاً للحيرة ، ونموذجاً للقلق .

على أنه ينبغي أن نشير إلى أن تشاؤم الشاعر لم يطغ على إيمانه بالله،
فهو في الآيات السابقة يلعن العقول المجنونة الحقاء التي تشك في قدرة
الله أو في وجوده ، حتى إذا قدم أحدهم الموت ثاب إلى رشفه ،
وارتعدت فرائصه . فالتيجاني هنا ، وفي شعره كله ، مؤمن بالله ، برغم
ما في نفسه من قلق وسخط وتشاؤم .

على أن التيجاني قد أطبقت عليه هذه المتاعب ، واصطلمحت عليه
الهموم وهو بعد شاب في مقتبل العمر . لم ينقض العقد الثاني من عمره
حتى رأى أن بين جراحه نفساً قد طعنت في السن ، وأثقلت بالتجارب ،
وحطت عليها أعباء مضمية . وإن شاعراً يقول :

نهلت من دمي الحوادث واستر
وي يراعي بما يدفع دني
لجدير بأن يكون شيخاً همأ ، ليس شاباً في عنفوان الشباب .

ولا شك أن التيجاني كان يحس بثقل الحياة ، وكان يشعر أنه
يحمل بين جنبيه ما لا يطيق ، لهذا طالما التفت التيجاني إلى ذكرياته
الحلوة أيام أن كان خلياً البال ، فارغ القلب ، خفيف العبء ، أيام الصبا
التي كان يحلو للتيجاني أن يستعيد لها من حين لآخر ، فيرى الفرق بينها
وبين أيام شبابه شاسعاً بعيداً . فما كان أحلى لديه من مفهوم الحياة في ذهنه
وهو صبي ، حين كان يرى الحياة كلها تتركز في قطعة من الطين ، يعجنها
بين يديه ثم يبنى بها ما يشاء ويهدم ، فرحاً مستبشراً ، أو تتركز في
أكوام من الحصى ، يشيد بها قصوراً ، ويقف أمامها معجباً بصنع يده ،
مزهواً بجمال فنه ، وما كان يعرف يومئذ من وطنه إلا نفسه ، وبعض

الصبية أو الصبايا الذين كان يلعب معهم ، وبعض الدمى والتماثيل التي
كان يتسلى بها :

ثورة للشباب يبساً مراعيه — وما كالصبا أقر لعيني
يفرح الطين في يدي فألهو جاهداً أهدم الحياة وأبني
كم أشيد الحصا قصوراً وكم أكبر من شأنها وأقدر شأني
وطني في الصبا الدمى والتماثيل — لنفسي ، ومن أحب ، وخدني

هذه الأيام الحلوة التي يتندم الشاعر على فراقها ، وعلى أنها مرت
واستقرت في الماضي المجهول ، وهو جاهل بقدرها ، غير حافل بها ،
غير أسف عليها :

حتى إذا ما استقرت في مخايلها رجعت أسأل عن آثارها الأبداء
طوى شبابي ذكرها على ألم وسوف نخلد إن مات الشباب غداً

على أن التيجاني - رغم سخطه وتبرمه بالحياة والأحياء - لم يكن
شريراً ، ولا سيئ الطوية ، ولا ميالاً إلى الطعن والسباب . كان طيب
القلب ، محباً للخير ، لا تكاد ترى في ديوانه هجاء ، أو أثراً للخبث وسوء
النبة . أما ثورته ونقمة ، وتبرمه ، فقد كان دائماً ، منصّباً على الحياة
بوجه عام ، وعلى الناس بوجه عام لم يقصد به فرداً أو جماعة . وربما
يستوقف القارىء في ديوانه قصيدة عنوانها ثورة ، توهم أحياناً أنها
ثورة على طبقات معينة من الناس ، على هؤلاء النازحين من أوطانهم
من اليونان ، والأرمن الذين استقروا في بلاده ، واستدروا منها خيرها ،
وجنوا منها الثراء العريض ، ثم بطروا وتكبروا :

قف بنا نملأ البلاد حماساً ونقوض من ركنها المرجحان
هي للنازحين مورد جود وهي للآهلين مبعث ضن
يستدر الأجانب الخير منها والثراء العريض في غير من
أبطرهم بلادنا فتعالى ابن أئمننا واستكبر الأرمني
ولكن التيجاني هنا مدفوع بنزعة وطنية قومية ، ثم هو في هذه
القصيدة ذاته لا يرضى من نفسه أن يثور هذه الثورة ، ويعد ثورته
(قذائف رعنا) وتجنبا ، كأنه يعتذر :

ويل هذا الأنام من قلبى البـاكي وويحى مما يجر التجنى
إنها ثورة الحياة فمن للكون يحميه من قذائف رعن
ثم تراه يلعن هذا الشباب الذى دفعه إلى هذه الثورة ، ويستعيد أيام
العصا الحلوة التى يؤثرها ويستعذبها .

انتهى الأمر بالشاعر - إذن - إلى السخط على الحياة ، والأحياء ،
تلك النهاية التى صار إليها أكثر الشعراء المجيدين .
ولكن كيف تأتى لهؤلاء الشعراء الساخطين على الحياة أن يواصلوا
حياتهم ، وأن يرتضوا البقاء في سجل الأحياء .

هذا إنما نلتمس الجواب عليه في هذا (المتنفس) الذى يخلقه الشاعر
لنفسه ، فلا بد لكل منهم من منفذ أو منافذ يتنفس منها الحياة ،
ولولا أنهم كانوا يخلقون لأنفسهم متنفسات ومنافذ يتنسمون منها نسمة
الحياة ، ويفزعون إليها من قسوة الواقع ، لما بقوا في الحياة لحظة

واحدة . ولقد تنفس التيجاني ، في حبه للجمال بمظاهره المختلفة ، فكان ذلك سلواه وعزاه ، وفسحة أمله .

والذي يتصفح ديوان التيجاني (إشرافه) سيرى من النظرة الأولى مدى تعلق الشاعر بالجمال ، وفي رأيه أن الشعر الجدير بالنظر والتقدير في ديوانه إنما يتجه أكثره إلى التغني بصفات الحب والجمال في مظاهره المختلفة :

(١) الجمال البشري .

(٢) الجمال الإلهي .

(٣) الجمال الطبيعي .

وهكذا عاش التيجاني بين حب للجمال ، وسخط على الحياة والأحياء حتى أصبحت نفسه مجالا لعواطف قوية متضاربة ، ولكنه مع ذلك ، ظل يتغنى كالطائر الفرد ، وينفس عن نفسه حراً من كل قيد ، لم تشب نفسه شائبة من فساد أو رياء ، ولئن فخر التيجاني بتلك النفس التي كان يحملها بين جنبيه ، فهو جدير بهذا الفخر :

هي نفسى من الندى قطرات	لم تنلها يد الزمان بخلط
هي في صفحة الشهباب قوى تز	خر بالحب أو تموج بسخط
هي قسطنطين من السماء ، فما	أضيع في العالم الترابي قسطنطين